مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 13، عدد رقم: 02، جوان 2024، صص: 289 - 300
تاريخ الاستلام(2023/01/04)تاريخ القبول (2024/03/24)تاريخ النشر (2024/06/30)

أسلوب الالتفات وأداءآته الدلالية في الخطاب النبوي

The Rhetorical Device of Apostrophe and its Semantic Performancesin the Prophetic Discourse

الجمعي حميدات

جامعة محمد لمين دباغين سطيف، d.hamidat@univ-setif2.dz

ملخّص:

كثيرا ما احتفظت العربية بخصائص على مستوى صياغتها الأسلوبية، جعلت من "بنيتها " في جانبها الأسلوبي تتمتع بأساليب تُبهر الأسماع وتشد الانتباه، وتجعل من المخاطب متواصلا مع مُتكلمه، من هذه الأساليب" أسلوب الالتفات"، حيث يتجلى فيه "العدول" في طريقة التكلم من متكلم إلى مخاطب، ومن مخاطب إلى غيبة والعكس، والذي يوحي بقيم وبصمات دلالية وأسلوبية تتوافق مع حالة المخاطب "المتلقي "، وتكشف عن فهم المتكلم من قصده، ومقتضى حال مخاطبه، لذلك تراه يَعدل بأساليب الكلام لتَغاير السياقات فيما بينها. فاتخذ الالتفات أشكالا وصورا التفاتية جمعت بين صورة كلامين مختلفين في البنية، جعلت من علماء العربية يُصنفونه ضمن علم المعاني، لخروج الكلام عن مقتضى الظاهر لتحقيق فائدة، كما عُدّ من علم البديع لأنه يُكسب النص حُسنا واستحسانا لدى المتلقي .فكانت دراسة الالتفات، بالاختصارعلى صور التفاتية مختلفة في البيان النبوي، و التي تعكس فصاحته ﷺ وبلاغته في استعمال هذا الأسلوب حين يجعل السامع ينتقل بين "الضمائر" بحثا عن المعنى، و إدراكا للخفايا الكامنة وراء النص النبوي.

كلمات مفتاحيّة:الالتفات، الدلالة، الدلالية، الأداءآت، الحديث النبوي الشريف

المؤلف المرسل:الجمعي حميدات، الإيميل:d.hamidat@univ-setif2.dz

Summary:
The Arabic language often preserves distinctive features at the level of its stylistic formulation, endowing its "structure" in the stylistic aspect with methods that bedazzle the ears, draw attention, and make the addressee engaged with the speaker. One of these methods is the "style of digression," where the "shifting" manifests in speaking from a speaker to an addressee, an addressee to a third person, and vice versa. This conveys semantic and stylistic values and imprints consistent with the state of the "recipient" addressee, revealing the speaker's understanding of their intention and the addressee's situation requirements. Therefore, the speaker adopts different speech styles to suit the varying contexts.The digression has taken various forms and images that combine two different speech structures, which made the scholars of Arabic classify it under the science of meanings (Ilm al-Ma'ani), as the speech departs from the apparent requirement to achieve a benefit. It is also considered part of the science of rhetoric (Ilm al-Badi') because it gives the text beauty and approval in the eyes of the recipient.The study of digression, in summary, focused on the different forms of digression in the Prophetic discourse, which reflects the eloquence and rhetoric of the Prophet (peace be upon him) in using this style when he makes the listener move between "pronouns" in search of meaning and an awareness of the hidden subtleties behind the Prophetic text.
Keywords: Remediation, weakness, deficiency, remedy, grammatical structures

1. مقـدمة.

تُعدّ اللغة العربية سجلَ العقل البشري في سيرورته عبر التاريخ، .نمُوا وتطورا .فقد عبّرت عن أحواله المختلفة بلغة مُوحَدة غنية، ويظهر غناها في الأدب الجاهلي، وكذا في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إذ كان من اكبر عوامل ثباتها وبقائها حية، وأعظم الشواهد على بلاغتها وفصاحة بيانها، وبذلك احتل الصدارة في استنباط الأحكام النحوية والصرفية والتركيبية والأسلوبية، لما يتمتع به من إعجاز اللفظ وفصاحته، وجودة الأساليب والتراكيب ودلالتها، إذ لكلٍ"مقام مقال" يُعبّر عن مدى ثروة اللغة العربية، سواء في النحو أو البلاغة.

وبالتركيز على الجانب الأسلوبي فيها أي(العربية) يتراءى للقارئ أساليب تُبهر الأسماع، وتؤسر القلوب، من هذه الأساليب" أسلوب الالتفات "، والذي يُعد ظاهرة لغوية لها أبعاد بلاغية كثيرة، تختلف باختلاف المقام والسياق، لاسيما حين يتقاطع مع "الأسلوب العدولي"، وذلك لما بينهما من علاقة، حتى أن هناك من البلاغيين من لم يُميّز بينهما "كالزمخشري "،إذ يرى بان الالتفات هو العدول"، كما تناول" ابن الأثير" العدول من خلال حديثه عن

الالتفات، ومن المعاصرين من كانت له رؤية مخالفة لما تقدم "كتمام حسان" الذي عَدّ الالتفات جزءا من العدول.

لذلك احتفظت العربية بخصائص على مستوى صياغتها الأسلوبية، حين تجلى العدول في طريق التكلم والخطاب والغيبة، هذا العدول الذي يوحي بقيم وبصمات دلالية وأسلوبية تتوافق مع حالة المخاطب "المتلقي"، وتكشف عن فهم المتكلم من قصده، ومقتضى حال مخاطبه، لذلك تراه يَعدل بأساليب الكلام لتَغاير السياقات، فيأتي الخطاب في سياق الغيبة، و الغيبة في سياق الخطاب، و الغيبة في سياق التكلم، والخطاب في سياق التكلم، و التكلم في سياق الخطاب..... وبذلك ينشئ صورا التفاتية، حين يجمع بين حاشيتي كلامين متباعدي المأخذ والأغراض، حين تنعطف وتميل إحداهما إلى الأخرى، ميلا لطيفا من غير واسطة، تكون ممهدة للانتقال من إحداهما إلى الأخرى، على جهة من جهات التحول والعدول.

فما معنى الالتفات؟ وما الغاية من دراسته؟ ما المرتكزات التي يستند عليها في تأصيله من جهة، وتجليه في الاحاديث النبوية الشريفة من جهة أخرى؟ ما الدلالات التي يؤديها ففي الخطاب النبوي؟وكيف تُوصل الاداءات الدلالية إلى القصدية من وراء هذا التحول؟

01. **ماهية الالتفات بين اللغة والاصطلاح:**

وردت لفظة الالتفات في معاجم اللغة بتعاريف كثيرة، حول مادة ل،ف،ت، إذ جاء في "**أساس البلاغة** ":مادة :"لفت": التفت اليهم وتلفّت...وما لي اليهم مُلتفت، ومُلتفت.. واذا أخبرك فلا تلتفت ...ومن المجاز :لَفَته عن رأيه: صرفه، وفلان يَلفت الكلام لفتا :يُرسله على عواهنه، ولا يبالي كيف جاء....[1].

وجاء في "**لسان العرب**" :مادة لفت": التفت إلى الشيء صرفه اليه..، لفَت وجهه عن القوم: صرفه، والتفت التفاتا ...وتلفّت إلى الشيء والتفت اليهم: صرف وجهه اليهم، ..قال تعالى :"**ولا يلتَفِت منكم أَحَدٌ إلّا امرأَتَك**..."هود 81، يُقال ما لفتك عن فلان: أي ما صرفك عنه..."[2].

وفي "**القاموس المحيط**": الالتفات من :لفتَه يلفِته: لَوَاه وصرفه عن رأيه، ..ومنه الالتفات والتلفت...[3]

ليتضح من خلال التعاريف اللغوية دلالة المادة اللغوية على معنى الانتقال والانصراف، وحقيقة الالتفات مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يُقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا..

وعلى الرغم من وجود الاتفاق في التعريف اللغوي، إلا أنّ هناك اختلافا وتباينا في المادة الاصطلاحية، حيث شغلت ظاهرة الالتفات بالَ اللغويين والنحويين واهتمامَهم، فظهرت طائفة متعددة من المصطلحات :"الصّرف"، "الانصراف"، "العدول"، "الاعتراض"، "مخالفة مقتضى الظاهر "،"شجاعة العربية "............

ف**(ابن المعتز)** عَدّ الالتفات من محاسن الكلام وهو من الانصراف، في قوله " هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن ذلك الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر " [4]

كما سُمي الالتفات" **الصّرف**:" "وأما الصرف فإنّهم يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب ومن الواحد إلى الجماعة، حيث يختص بالضمائر من الخطاب إلى الغيبة، ومن ناحية العدد من الإفراد إلى الجمع....."[5] .

وسمي "**الاعتراض** :"وهو الانصراف عن الإخبار إلى المخاطبة وعن المخاطبة إلى الإخبار "وأن يكون المتكلم آخذا في معنى، فيعدل عنه إلى غيره قبل تمام الأول، ثم يعود اليه فيتمه، فيكون فيما عدل اليه مبالغة وزيادة حسنه. "[6] .

وهو تعريف للالتفات إذ هو زيادة معنى على معنى آخر فيكون حَسنا، حتّى وإن كان مبالغا فيه.

والالتفات في **مصطلح علم البلاغة** :" هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول" [7]

في وقت ذهب **(السّكاكي)** إلى أنّ الالتفات :"هو نقل الكلام عن الكلام إلى الغيبة، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينتقل كل واحد منها إلى الأخر، ويُسمى هذا النقل "التفاتا "عند علماء المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أُدخل في القبول عند السامع، وأحسنَ تطرية لنشاطه، و أملا باستدرار إصغائه" [8] .

وخير من عرض لموضوع الالتفات **(ضياء الدين بن الأثير)** فقد عالجه بوضوحٍ وفهمٍ لأسراره البلاغية، إذ استهل كلامه عن هذا الفن من فنون البديع المعنوي بِبيان حقيقته فيقول :" ....وحقيقتُه مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يُقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة، كالانتقالات من خطاب حاضر إلى غائب، ومن خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض أو غير ذلك ...." [9] .

وقد عَدّ الالتفات من شجاعة العربية وفيه يقول: "لأنّ الشجاعة هي الإقدام، وذلك أنّ الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في

الكلام " [10]، .و الشجاعة هنا "إقدام على أنماط من التعبير مخالفة لما يقتضيه القصد، لأنّها تعبير بأسلوب الخطاب في سياق الغيبة، وذكر الغيبة في سياق الخطاب وهكذا، والمعتمد عليه في ذلك سياق الكلام وشفافية الدلالة، وهذا إن تأملته ضرب من الشجاعة واقتحام سبيل غير السبيل المألوف"[11].

وقد تناول (**الزمخشري**) الالتفات مُبيّنا بلاغته ودوره في توضيح المعنى، كاشفا دورَه في الكلام، حين وقف عند قوله تعالى: **" إياك نعبد وإياك نستعين** " الفاتحة، فقال: فإن قلت :"لمَ عَدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟قلتُ: " هذا يسمى الالتفات " وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم ... وإنما يستعمل الالتفات في الكلام، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء اليه، من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائدَ .."[12] .

وبذلك يكون "الزمخشري" قد أسهم في إرساء دعائم هذا المفهوم، وتوضيح دوره في تحديد ملامح هذا الأسلوب وإبراز الغرض الرئيسي من وراء وجوده في القرآن الكريم خاصة، وكلام العرب عامة .

حتى وإن كانت هناك أغراض أخرى كامنة وراء مجيء هذا الأسلوب في العربية، فقد حصرها علماء العربية **"كالزركشي"** في أغراض منها التنبيه، التعظيم، المبالغة، الاختصاص، الاهتمام .....[13].

هذا إضافة إلى الأثر السمعي الذي يتركه الالتفات في المتلقي حال الانتقال من حال إلى أخرى، مما يجعل المتلقي على تطرية لنشاط سمعه، مستحضرا عناصر الجدة في الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، في جو تفرضه أغراضٌ تفهم من خلال السياق والتراكيب .

لذلك تستعمل العرب هذا النوع من الأسلوب للانتقال من الغيبة إلى التكلم، لأنّهم يرون أنّ الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب أُدخل في القبول عند السامع، وأَحسَن تطرية لنشاطه، وإيقاظا للإصغاء اليه، من أجرائه على أسلوب واحد، ولا يكون ذلك إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك [14] .

وفي أحاديث الصحيحين ورد الالتفات في كلام النبي .ص .راعى فيه مقتضى حال المخاطب، وفق الصور الآتية حسب ترتيب البلاغيين، الذين تناولوا هذا الأسلوب البلاغي ضمن علم البديع والمحسنات المعنوية [15] .

الصور الالتفاتية في الحديث النبوي الشريف:

1/ الالتفات من التكلم إلى الغيبة :

واحدة من الأشكال البنائية التي رسمها البلاغيون للالتفات، فيها تبدو البنية مختلفة عن بعضها البعض في تقنية الأسلوب داخل النصوص، ومنه فإن وظيفتها البلاغية أيضا تختلف لعدم وجود مطابقة ضميرية بين تكلم وغيبة، ومن أمثلة ما ورد في الأدب النبوي خطابه في الأنصار لمّا وجدوا في أنفسهم على رسول الله، حين لم يُقسّم لهم الغنائم، وفيها كان النبي ﷺ يشير على نفسه بضمير المتكلم فيقول :" **فإنّي أُعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم "، ثم قال :" يا معشر الأنصار: أَلَم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ ..." ثم ينتقل من صيغة التكلم إلى الغيبة :" يا معشر الأنصار أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم"** [16].

فالمقام مقام تلطف بالمخاطبين وتطييب لقلوبهم، وإرضاء لهم مع عتاب خفيف ... وتزهيد بالدنيا التي من أجلها وجدوا على رسول الله، وترغيب لهم بما هو خير منها، فلعلّ الحديث بصيغة التكلم كان في مقام إظهار الفضل عليهم، عتابا لهم على ما حصل منهم، ثم التفت إلى صيغة الغيبة لبيان عظم ما حازوا ورجعوا به، في مقابل ما حاز الناس من الدنيا، فلو جاء الكلام على الظاهر لقيل :"وتذهبون بي، تحوزونني "،فجعل الضمير يتحول إلى الغائب وذلك أنّ تحوزونني يتحقق مدلُولها ومُرادها في حال الآخرة في حضرة الخالق، في حين أنّ ما أحرزه غيرُ الأنصار من متاع زائل يتحقق في الحياة الدنيا .

ومن أمثلته كذلك حديث رسول الله ﷺ من حديث أبي بكر قال: "**كنت مع النبي في الغار فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت يا نبي الله: "لو أنّ بعضهم طأطأ بصره رآنا "، فقال "ص" :" أسكت يا أبا بكر:اثنان الله ثالثهما، وفي رواية:" يا أبا بكر ما ظنّك باثنين الله ثالثهما "**" [17] .

وإن كانت الرواية الأولى هي المحفوظة، فإنّ قوله ﷺ: " اثنان " :"خبر لمبتدأ محذوف" تقديره "نحن اثنان" على حد تعبير **(ابن حجر)**في "فتح الباري "[18]، وعلى تقدير المبتدأ ضميرا للتكلم" نحن "، فإنّ قوله :"الله ثالثهما " التفات من التكلم إلى الغيبة، ولعلّ النبي عليه الصلاة والسلام لما رأى الوجل والإشفاق في "أبي بكر" أراد أن يُطمئنه ويُؤنسه، فبنى الخبر على" التعظيم "حيث جاء بلفظ الجلالة " الله " لما فيه من الإشعار بالعظمة والإحاطة والقدرة، وضمير الغيبة لما فيه من "تعظيم"، لأنّ في ذكر لفظ الجلالة علما بالاسم المختص به تذكيرا لأبي بكر بعظم الرب، و إحاطته بخلقه ونصرته لعبادة وأوليائه، واستغناء العباد به، وهذا مقام أحوج ما يكون العبد فيه إلى التذكير يذلك، ليأنس بالله ﷻ ويستغنى به ويتوكل عليه، فتطمئنُ نفسُه ويثبت جنانُه، هذا إضافة إلى أمر رسول الله ﷺ أبا بكر بالسكوت، لئلا يُلْفِتَ المشركين اليهم، ثم أعقبه بـ"نداء" ليظهر به "التلطف"

بالمنادى، و تأنيسه في حال اشتد فيه حزنه وخوفه، على أن يصل المشركون اليهم فيظفرون به، وهو الغرض المتوخى من وراء "النداء التمهيدي" .

2/ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

في هذا النوع من الالتفات الخاص بالرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، يورد **(ابن الأثير)**بعض آراء علماء البلاغة في السبب الذي قصدت العرب اليه من وراء استعمال هذا الأسلوب، ثم يعقب عليه برأيه " فعامة المنتمين إلى هذا الفن اذا سُئلوا عن هذا الانتقال، قالوا: " كانت عادة العرب في أساليب كلامهم... لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنّها لاتُحدّ بحدّ، و لا تُضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها ليُقاس عليها غيرُها ... ذلك أنّ الغرض مقصور على العناية بالمعنى المقصود وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر، وإنّما يُؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه ....[19] .

ومن مواضع هذا الالتفات حديث أبي سعد الخذري ﷺ قال: " **خطب رسول الله ﷺ في الناس فقال: إنّ الله خيّر عبدا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله، قال: فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه ... فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلَمَنا، قال:" يا أبا بكر لا تبكِ، إنّ أمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت مُتّخذا خليلا غيرَربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودّته، لا يبقيَنَّ في المسجد باب إلا سُدّ إلا بابُ أبي بكر"**[20].

جاء هذا الحديث في مقام تطييب نفس أبي بكر وتأنيسه، حين بكى لمعرفته بقرب فراق النبي ﷺ، فناداه الرسول "ص" نداء الصاحب تأنيسا، ونهاه نهي الملتمس تطييبا، وجاء الكلام بصيغة الخطاب :"يا أبا بكر لا تبك"، إلا أنّ الأسلوب لم يستمر على هذه الصيغة "أي الخطاب" فالتفت إلى الغيبة، وكان ظاهره أن يقال :" ان أمَنّ الناس ...أنت ... لاتخذتك ... بابك ... " ولعل العلة والهدف من ذلك ما أراده الرسول ﷺ حتى لا يكون الخطاب فرديا خاصا بأبي بكر، وكأن الفضل مقصور عليهما، بل أراد أن يكون خبرا عاما تعلمه الأمة، لتدرك فضل أبي بكر على رسولها وعليها كلّها، وهذا فيه مزيد تطييب وتأنيس لأبي بكر .

هذا النقل في التركيب يُعد استحضارا حيا للتواصل، انتقل فيه من المخاطب :"أنت" "لاتخذتك، بابك " إلى الغائب الذي افترضه وحتمه مقتضى الحال والظاهر، وعن الخطاب إلى الغيبة قالوا :" كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامها "[21] .

ومن الالتفات للغيبة بعد الخطاب حديث ابن عمر قال: "**مكثنا ذات ليلة ننتظر رسول الله لصلاة العشاء الآخرة، فخرج الينا، حين ذهب ثلث الليل أو بعده، فلا ندري أيَّ شيء شغله في أهله أو غير ذلك؟، فقال حين خرج: " إنكم لتنتظرون صلاةً ما ينتظرها أهلُ دِين غيركم، ولولا أنْ يثقلَ على أمتي لَصليتُ بهم هذه الساعة"، ثم أمر المؤذن فأقام الصلاة وصلّى"** [22] .

جاء هذا الحديث بعد أن أعْتَمَ رسول الله ﷺ حتى ناداه عمر :" قد نام النساء والصبيان، فجاء اعتذارا وتطييبا لقلوبهم بعد أن تأخر عليهم، وحصل لهم في التأخر مشقةٌ، فجاء الكلام على الظاهر بصيغة الخطاب :"إنّكم، تنتظرون، أهل دين غيركم " ثم التفت إلى الغيبة "...لصليت بهم " فلو جاء الكلام على الظاهر لقيل "يثقل عليكم ...صليت بكم"، بصيغة الخطاب، وفي هذا إسناد للثقل على الصحابة رضوان الله عليهم .

ولعلّ النبي ﷺ أراد أن يدع هذا الإسناد الذي يشعر أصحابه بثقل الأعمال الفاضلة عليهم، وهم الذين يحرصون على اتباع دينه والاقتداء بهديه، وانتظروا إلى هذا الوقت حتى شق عليهم، ثم إنّ توجيه الخطاب لهم يوهم أنّ الثقل عليهم دون غيرهم، لكن حين يأتي الثقل مسندا إلى عموم الأمة وهم داخلون فيها، فإن الوهم مُنْتَف .

3 الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

كثيرا ما تعددت معاني الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في الحديث النبوي، بقدر ما تنوعت الأحاديث التي ورد فيها هذا النوع من الالتفات، ومما يدخل في هذه الصورة حديث عائشة ﵂، لما "حاضت: وهي في طريقها إلى الحج، فدخل عليها رسول الله ﷺ وهي تبكي فقال: **"ما يبكيك؟"**، ....فتسلية لها وتخفيفا لمصابها، قال "ص": "**إنّ هذا أمرٌ كتبه الله على بنات آدم "**[23]، فقد جرى الكلام على الغيبة شاملا كل النساء، وفي كل حال، فليست مختصةً به عائشةُ فقط، مع تعليل: "هذا شيء كتبه الله على بنات آدم يكون منهن "، إذ لو قال النبي "ص" لها:" كتبه الله عليك" لكان فيه مزيد مشقة عليها فوق ماهي عليه، ثم التفت إليها مخاطبا بصيغة الخطاب وقال:" فاقضي ما يقضي الحاج، غير أنّه لا تطوفي بالبيت حتى تطهري، وكان الظاهر أن يأتي الكلام على الغيبة كما أتى السابق منه، وإنّما التفت إلى الخطاب ليبيّن لها الحكم الذي يخصها في حجّها " التخصيص" .

4 الالتفات من الخطاب إلى التكلم:

هي صورة من صور خروج الكلام إلى مقتضى الحال، والأصل فيه أن يكون على مقتضى الظاهر، وهي ظاهرة متعلقة بأسلوب الالتفات، إذ أصبحت" الضمائر " هي العلامة المميزة له، فالانتقال اذا من ضمير المخاطب إلى ضمير المتكلم فيه خروج عما اقتضاه سياق الحديث الوارد فيه، ومن أمثلة ما ورد في ذلك حديث حذيفة بن اليمان أنّ رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: **" باسمك أموت وأحيا .... الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور"** [24] .

في هذا الموضع من الدعاء يخاطب الرسول ﷺ المولى عز وجل " **باسمك أحيا، وباسمك أموت "ثم يُثْني عليه ببعض صفاته تنزيها وتعظيما، كما جاء في حديث آخر " فَوّضْت أمري إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ..."** [25]، فيه إظهار لكمال الخشوع والخضوع لله، والمعبّر عنه بضمير الخطاب "ك" في "بسمك، منك، إليك،...."

لينتقل بعدها إلى أسلوب التكلم " الذي أحيانا بعد ما أماتنا " ليشير بهذا الالتفات إلى وظيفة تخصيص هاتين الصفتين للخالق عز وجل، وهي من الصفات الإلهية المتفرد بها جل شأنه، كما كان للالتفات الأثر المهم في جلب انتباه المتلقي بالوقوف على الحديث تدبرا وتمعنا في مراده "ص" منه.

ومن أمثلة هذا الضرب من الالتفات ما ورد عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :" **أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذٌ بناصيته، اللّهم أنتَ الأولُ فليس قبلك شيءٌ، وأنت الآخرُ فليس بعدك شيءٌ، وأنت الظاهرُ فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيءٌ، اقضِ عنا الدين، وأغننا من الفقر** "[26].

صورة من صور الالتفات تكرر فيها ضمير الخطاب "أنت" مرات عدة، عاملا على تحقيق وظيفة دلالية من خلال ثراء وغنى دلالة "التضاد "في السياق، والذي تمثله الألفاظ :"الأول والآخر "،" الظاهر والباطن " " فوقك، ودونك " "قبلك وبعدك "، والتي فيها توكيد للقدرة اللامتناهية لله تعالى .

وقد جاء الالتفات في هذا الحديث من الخطاب (بك) إلى التكلم في (عنّا، أغننا) بدلالة ضمير المتكلمين "نا" تعبيرا منه بصيغة الجمع عن المفرد، لما فيه من إقرار وإشعار بتفويض الأمر في نهاية مطافه لله جلّ شأنه، لا سيما هو المتجاوز عن سيئاتنا، والغافر لزلاتنا من جهة، كما يُقرّ بالعبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى، وبتفويض جميع الأمور اليه من لدن الرسول "ص" تعليما وإرشادا من جهة أخرى.

5 الالتفات من التكلم إلى الخطاب:

في فائدة هذا النوع من الالتفات يقول(**الإمام الزركشي**) حين يكون هذا الانتقال من التكلم إلى الخطاب: " ...ووجهه (فائدته) حثُّ السّامع وبعثُه على الاستماع، حيث أقبل المتكلم عليه، وأنه أعطاه فضل عناية وتخصيص بالمواجهة " [27]، ومن مواطن هذا النوع حديث بشر بن كعب ﷺ عن رسول اللهﷺ في دعاء الاستغفار: " **اللّهم أنت ربي لا اله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي، انّه لا يغفر الذنوب إلا أنت** " [28].

موطن للالتفات يجسد أحد الدعامات الأساسية في مقام "الدعاء"، حين يعترف بها العبد بفضل الخالق جل شأنه

كان فيها الالتفات عن أسلوب التكلم إلى الخطاب في مواضع متعددة :"أنا عبدك، أنا على عهدك، ذنبي، عليّ" إلى أسلوب الخطاب "اغفر لي"، وسرُّ التعبير بأسلوب "الأمر" في مقام "الدعاء"

هو:" إظهار كمال الخضوع لله تعالى وبيان شدة الرغبة في تحقيق تلك الأفعال المطلوبة، حتى كأنها أمور مطلوبة من الله تعالى "[29] .

ولعلّ الغرض من هذا الالتفات هو تطهير النفس من الذنوب، وذلك لن يتأتى إلاّ بالتقرب للخالق عز وجل، وشكره على نعمه وآلاءه، و الشكر أحد الدعائم الأساسية لسعادة العباد في الدارين، فأدّى الالتفات تخصيص هذا الأمر للخالق دون سواه .

** ليكون هناك النوع الثاني من الالتفات، ففيه صور العدول عن"المستقبل إلى الماضي" و"من الماضي إلى المستقبل"، وغيرها من الصور التي تعكس قدرة المتكلم على التحكم في استعمال الألفاظ والصيغ الكلامية، كأن يعبر عن "المستقبل بصيغ الماضي "وعن إسناد "مستقبله بصيغ ماضيه" وهكذا، فكان هذا الوقوف على التفات الضمائر فقط لتمييز دورها في تغير الكلام والتفاتته .

لنخلص بعد هذه الإطلالة في الأدب النبوي لنقر بالدور المتميز لأسلوب الالتفات في العمل على تطرية نشاط السامع وشدّ انتباهه، وجعله متواصلا مع الأحاديث النبوية بأغراضه المختلفة إرشادا وتعليما، ترغيبا وترهيبا، مدحا وتخصيصا ...، لذلك يأتي" العدول أو الالتفات" من صيغة إلى أخرى تبعا لخصوصية المقام وما يقتضيه مقتضى الحال، مما يعكس في كثير من المواطن فصاحة الرسول "ص" في الخطاب، وفي التعامل مع مخاطبه وفق ما يقتضيه الحال والمقام معا من جهة، وتراوُحُ أسلوب الالتفات بين علوم المعاني اذا خرج الكلام عن مقتضى الظاهر لتحقيق فائدة، وبين علم البديع لأنّه يعمل على أن يُكسب النص حُسنًا واستحسانًا لدى السامع والمتلقي من جهة أخرى .

مراجع البحث وإحالاته:

1الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 /1998، ج2 ص:173.مادة :لفت.

2ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، مادة لفت .

3الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط8/ 2005 ص:159.

4عبد الله ابن المعز، البديع، منشورات دار المسيرة بيروت لبنان ط3، 1982 ص: 58

5إنعام فوال، المعجم المفصل في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية بيروت ط2 1996 ص:209 .

6المرجع نفسه ص: 209 .

7يحي بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، المقتطف مصر د،ط ج:2 ص: 13.

8السكاكي أبو يعقوب، مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، منشورات دار الكتب العلمية بيروت ط2 2011 ص: 296 .

9ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار الرفاعي رياض ط2 1403 هـ ص: 181.

10المرجع نفسه ص: 181 .

11محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، مكتبة وهبة القاهرة مصر ط4 1416هـ ص:51 .

12الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، دار الكتب العلمية بيروت ط1 1415هـ ج1ص: 24/23.

13الزركشي، البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت لبنان 1391هـ ج2 ص:309/302 .

14جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم مطبعة الحلبي القاهرة 1958 ج1 ص:334

15عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر د ت ص: 560

16محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، شرحه وضبطه مصطفى ديب البغا، دار الهدى للطباعة والنشر عين ليلة 1992، حديث رقم 4082كتاب المغازي باب غزوة الطائف ج4 ص: 1577.

17صحيح البخاري حديث رقم 3453، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين ج3 ص1337.

18ابن حجر العسقلاني، فتح الباري على شرح صحيح البخاري، تح محمد فؤاد عبد الباقي دار المعرفة بيروت 2004 ج7 ص: 11

19عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية :ص:565 /566 .

20صحيح البخاري حديث رقم 3404كتاب فضائل الصحابة، باب، سدوا الأبواب ... ج3 ص: 1337

21ابن الأثير، المثل السائر، 186.

22صحيح البخاري حديث رقم 545 كتاب مواقيت الصلاة، باب النوم قبل العشاء، ج1 208 (أخرجه بهذا اللفظ الإمام مسلم حديث رقم 639، تحقيق محمد عبد الباقي المكتبة الإسلامية ط 1 1374هـ.

23صحيح البخاري حديث رقم 290 كتاب الحيض باب كيف كان بدء الحيض، ج1 ص: 113.

24صحيح البخاري حديث رقم 5953 كتاب الدعوات، باب ما يقول اذا نام، ج5 ص: 2326.

25المرجع نفسه حديث رقم 5954 الباب نفسه، الكتاب نفسه ص ن.

26صحيح مسلم حديث رقم 2713 ج4 ص:2084.

27الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3 ص315 .

28صحيح البخاري حديث رقم 5947،كتاب الدعوات باب فضل الاستغفار ج5 ص:2324 .

29بسيوني فيود، علم المعاني، مكتبة وهبة، القاهرة د ط، ج2، ص:94 .

المصادر والمراجع المعتمدة في البحث "

. قائمة مراجع البحث وإحالاته:

1. ابن الأثير، المثل السائر، تح أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار الرفاعي رياض ط2 1403 هـ.
2. إنعام فوال، المعجم المفصل في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية بيروت ط2 1996.
3. البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، شرحه وضبطه مصطفى ديب البغا، دار الهدى للطباعة والنشر عين ليلة 1992.
4. بسيوني فيود، علم المعاني، مكتبة وهبة، القاهرة د ط.
5. جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم مطبعة الحلبي القاهرة 1958.
6. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري على شرح صحيح البخاري، تح محمد فؤاد عبد الباقي دار المعرفة بيروت 2004.
7. الزركشي، البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت لبنان 1391هـ
8. الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 /1998، مادة: لفت.
9. الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، دار الكتب العلمية بيروت ط1 1415هـ
10. السكاكي أبو يعقوب، مفتاح العلوم، تح عبد الحميد هنداوي، منشورات دار الكتب العلمية بيروت ط2 2011.
11. عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت.
12. عبد الله ابن المعز، البديع، منشورات دار المسيرة بيروت لبنان ط3.
13. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط8 /2005.
14. محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، مكتبة وهبة القاهرة مصر ط4 1416هـ.
15. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، مادة لفت.
16. يحي بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، المقتطف مصر د، ط